البـــاب السابع

فى ذكر بعض ما جرى على يديه من الكرامات وأخبر به رضى الله عنه من المكاشفات وهو باب واسع لا تكاد تحصر أخباره ولا تدخل تحت العد وقائعه إذ قل أن يوجد أحدمن أصحابه المتفرقين فى الاقطارالشاسعة من حواضر وبوادى الا وعنده فى هذا الباب أخبار ووقائع مما شاهده بنفسه أو سمعه ممن شاهده خصوصا وقد مات منهم العدد الكثير وانقطعت سبل المواصلة بهم وإنما نذكر هنا بعض ما شاهدناه وسمعناه ممن أمكن الاجتماع به فى الوقت الحاضر .

فمن ذلك أنى لما قدمت من القاهرة بعد وفاة الشيخ رضى الله عنه أتى إلى بعض أصحابه فقال لى إن زوجى حامل وقد نزل بها داء كان أصابها فى بداية الحمل وكنت أخبرت به الشيخ فأمرنى باطعامها اللوز المدقوق بالسحتر وقال لى إنها ستلد ولداً ذكراً فقلت له أطعمها الآن أيضاً ما أمرك به وبعد عشرين يوما ولدت ذكراً كما قال .

ومنها أن امرأة من قرابته جاءت لزيارته وكان لها ولد فمات ولم تحمل بعده نحو عشر سنين فقال لها إنك ستحملين قريباً بولد ذكر فسميه حمزة وسيعيش إن شاء الله فكان كما قال ثم لم تحمل بعده .

ومنها انه لما ولد آخر أنجاله قال لزوجاته ان والدى مات وترك ولده فلاناً ابن شهرين وأنا كذلك سأترك ولدى هذا ابن شهرين فمات بعد شهرين لان ولده المذكور ولد سابع عشر رجب وتوفى هو سادس شوال بعد شهرين وسبعة أيام أو ثمانية ولم يكن فى ذلك الوقت مريضاً بل بعد ذلك بنحو نصف شهر تزوج امرأة أخرى كما سبق .

وتكررت الحكايات وتنوعت أساليبها عنه فى هذا المعنى وهو إخباره بموته لجماعة كثيرة من الناس تارة بالتصريح وأخرى بالتلويح .

ومنها أنه فى السنة التى توفى فيها قام ذات ليلة فى منتصف الليل على عادته فى كل ليلة لكن لم يذهب إلى موضع مصلاه بل بقى بداخل الغرفة وكانت الزوجة نائمة فانتبهت على سماع حركة وجلبة وأخذ وعراك شديد وبعدها سقط الشيخ سقطة منكرة فقامت فزعة فاذا هو جالس يلهث لهثاً عظيما وإذا حاجبه مشجوج ووجهه وصدره مكسوان دما فسألته عن الواقع فأجابها بأنه سقط على الحصير فقالت كيف يحصل مثل هذا الجرح العظيم من السقوط على الحصير مع انى كنت أسمع حركة وجلبة على أثرها استيقظت فأصر على ذلك وهو يضحك ويمسح الدم عن وجهه ولما شاع خبر ذلك سأله بعض من له به مزيد اختصاص فأخبره بأن ولياً لله تعالى من أهل اليمن كان يتعرض لبعض مصالح المسلمين فحصل بينى وبينه نزاع أدى إلى المضاربة والمقاتلة فقتلته بعد أن شجنى ثم بعد هذا الحادث بنحو السنة توفى هو رضى الله عنه كما وقع لجده سيدى أحمد بن عبد المؤمن فانه بعد قتله للغربزورى من طريق الغيب بسنة كانت وفاته أيضاً كما ذكرته فى الأصل وفى كتاب المؤذن مع بعض من وقع له ذلك من الأولياء .

ومنها ان بعض الفقراء لم يكن له فى بدايته أولاد فاوصى للشيخ بثلث ماله بعد الوفاة وكتب بذلك كتابا وأشهد عليه ثم أتاه به فبقى عنده أزيد من عشر سنين وفى يوم أرسل به اليه وقال له انا كنا قبلناه منك فى وقت لم يكن لك أولاد واذ رزقك الله أولادا فانت أولى به فلما ذهب الرسول به إلى الرجل المذكور صار يبدى عجبه ويقول هذه كرامة عظيمة فان والدى وصله الخبر بأنى أوصيت بالثلث للشيخ فارسل إلى قريبا يقول لابد أن ترجع فيما أعطيت شيخك وإلا فانا ساخط عليك فبقيت متحيرا خائفا من سخط الوالد ومستحييا من الشيخ وبينا أنا أفكر فى ذلك ولم أخبر به أحداً إذا بك جئتنى بالكتاب من غير طلب ولا سؤال .

ومنها أنى كنت وأنا بالقاهرة أفعل شيئا أو أعزم على شيء فيأتينى منه كتاب بعد العزم بيومين أو ثلاثة يحذرنى فيه من ذلك الشيء ويذكرنى عاقبته أو يأمرنى به ويؤكد على فيه تارة تصريحا وتارة تلويحا مع أن الكتاب لا يمكن أن يصل من المغرب إلى القاهرة فى أقل من اسبوع فكان رضى الله عنه يكتب إلى فى ذلك العزم قبل أن يجرى بخاطرى .

ومنها ماذكره صاحب النسمات قال حلف رجل بالطلاق لا يدخل دار فلان لرجل من أصهاره ثم بعد مدة مات المحلوف عليه فسألنى الرجل هل يجوز له دخول داره بعد موته فارسلت الى الشيخ مع بعض أنجاله فاجابه بأنه لا يدخل فاستشكلت الجواب وظننت أن الرسول لم يبلغ السؤال على وجهه فكتبته فى ورقة وكتبت معه بعض النصوص الفقهية وأرسلت اليه فلما نظر فيه قال قل له الجواب ما ذكرته أولا فبقيت حائرا متعجبا فلما قابلت السائل سألته عن سبب الحلف فاذا هو حلف من أجل زوج الرجل الميت وكانت أخت زوجه هو لا من أجل الميت نفسه وإنما سماه عند الحلف لكونه صاحب الدار والمرأة المذكورة لا تزال بالدار والحلف انما وقع من أجلها فعلمت أن ذلك من كشفه رضى الله عنه .

ومنها انه لما ركب القطار متوجها من بورسعيد إلى القاهرة وقف البابور بابى صير وكان وقت العصر فنزل الشيخ للصلاة ونزلنا معه فصار الركاب يقولون لا تفعلوا فان البابور لا يقف هنا الا قليلا بحيث لا تمكنكم الصلاة فلم يلتفت اليهم وصار أهل المحطة أيضا يصيحون ويقولون لم يبق لقيام البابور إلا دقيقة واحدة أو اثنان فنزل وصلى العصر بالاتمام أربع ركعات ثم سلم وركب وقام البابور وصار الناس متعجبين لتأخر البابور عن موعد قيامه .

ومنها أنه كان له أتباع كثيرون من الجن كان يراهم أهل البيت ووقعت لهم معهم وقائع متعددة فكانوا يذكرون ذلك للشيخ فيقول لا تخافوا فانهم فقراء ياتون للزيارة .

ومنها انه خرج ذات يوم إلى الجيزة بضواحى القاهرة وجلس بمكان متسع هناك معد للجلوس فى الصيف لمن يشرب الشربات والمبردات فجلس وجلسنا معه فرأيت فى منتهى ذلك الموضع شاشة بيضاء لعرض السينما على القاعدين بعد الغروب فقلت فى نفسى إذا جلس إلى وقت عرضها فسينظر اليها اليوم وكان يسمع عنها ويشدد النكير فيها جدا فصلى المغرب ثم جلس وأطال الصمت لا يتكلم مع أحد وصرنا ننتظر ظهور ذلك واذا بالنور الكهربائى انقطع تياره ووقف سير العربات الكهربائية نحو نصف ساعة وهو فى كلها صامت لا يتكلم ونحن سكوت ثم التفت إلى وقال نمشى قلت عن اذنكم فقام وجاء التيار الكهربائى عند قيامه فركبنا ونزلنا مع أنى أقمت تسع سنين بالقاهرة ما رأيت التيار الكهربائى انقطع بها ولا دقيقة واحدة .

ومنها أنه كان يقول لبعض أصحابه يافلان اصبر فسيمر عليك أمر عظيم قال ذلك له مرارا وبعد وفاته بنحو العامين وقع له ما كان يخبره به ورأى من الشدائد والأهوال ماتشيب له الولدان وحضر فى حرب أسبانيا ثم فى أوائل حرب ألمانيا مع الحلفاء ولا يزال منفياً عن وطنه الى اليوم .

ومنها ما حدثنى به بعضهم قال ألقى القبض على بعض قرابتى فى مسألة ثورية سياسية فحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثين سنة فذهبت إلى الشيخ مستشفعاً به وحصل لى تشويش عظيم فقال لى كل هذا لا أصل له واعتقد أن ابن عمك معنا الآن فى موضعنا هذا فلم يمر العام حتى اجتمعنا بذلك الموضع عنده ونسخ حكم الثلاثين سنة .

ومنها أن بعض أطباء الجبل شددت عليه الحكومة الاسبانية فى التداوى وأرادت منعه منه فجاء إلى الشيخ فقال له لا تخف فانهم سيأتون أنفسهم للتداوى عندك فكان ذلك بعد وفاة الشيخ رضى الله عنه بنحو العام لما وقع الحرب باسبانيا وكثر الجرحى المنكسر عظامهم فكانوا يرسلونهم للتداوى عنده .

ومنها أنه أرسل يوما لرجل خياط وأمره أن يخيط له جلابة ويحضرها فى اليوم الثانى فاعتذر بأنه لا يخيط بالليل لضرر يعتريه عند الخياطة بالليل وإنما يخيط بالنهار منذ زمان طويل لأجل الداء المذكور فلما رجع اليه الرسول بذلك أعطاه شمعة وقال قل له يوقدها ويخيط على ضوئها ولا يخاف من شىء ففعل فأذهب الله عنه ذلك الداء ورجع الى حالته الأولى ولا يزال كذلك الى اليوم .

ومنها ما حدثنى به بعض العلماء الأشراف قال قصدت الشيخ للزيارة وأخذت أخا صغيراً لم يخرج من بلده قط فلما سافرنا وكان فصل الشتاء أصابنا شدائد ومتاعب من أجل الرياح والامطار والبرد والثلج الذى أخرنا بالطريق ثمانية أيام فقال أخى فى ضجر ليتنا لم نخرج من محلنا فقلت له هذا دليل قبول زيارتنا إذ قابلتنا هذه المشاق التى يكون عظم الأجر على قدر عظمها فقال فى حالة غضب أنا ما خرجت للزيارة إنما خرجت للفسحة ورؤية مدينة طنجة فلما قدمنا على الشيخ وكان ذلك قبل عيد الأضحى جلسنا فى ضيافته أياما فلما قرب العيد قال لى يوما يا فلان أما أنت وفلان لأخ ءاخر كان معنا فسافرا للبلد لتحضرا العيد مع الأهل واما فلان الاخ الصغير فاتركاه معنا حتى نفسحه فى طنجة قال فتذكرت مقالته التى قالها بالطريق وعرفت أن الشيخ يشير اليها ولكن أردت أن أتحقق فقلت له يا سيدى هو ما جاء إلا بقصد زيارتكم فقال لا هو جاء للفسحة فاعدتها عليه مرة أخرى للتثبت وقلت ياسيدى ما جاء إلا للزيارة فأعاد قوله أيضاً وقال بل ما جاء إلا للفسحة ثم اعدت مقالتى ثالث مرة فقال حسن وإذا كان الأمر كما تقول فليجمع بين الفسحة والزيارة .

ومنها ان بعض الصادقين حدث انه لما كان وقت الجهاد بالقبيلة الانجرية وكانت وقعة صدينة وكنت حاضرا بها رأيت الشيخ وقت المعمعة فى جهة فقصدته للسلام عليه فلم أر له أثرا وكان وقته بطنجة لم يخرج منها .

ومنها ما حدث به بعض الأشراف الصالحين من أهل فاس قال جاءه الشيخ من طريق الطى ومكث فى ضيافتى ثلاثة أيام ما خرج من الدار ولا رآه أحد عندى وهو مقيم بطنجة لم يخرج منها .

ومنها ما حدثنى به بعض الفقراء بالقبيلة الانجرية قال لما كان الشيخ عندنا راجعا من غمارة وكانت أيام فتنة الريسونى دخلت عليه متخوفا من وإذاية الريسونى فقال لى من هنا إلى شهر انا ضامن ان لايقع لكم شىء وبعد رجوعنا الى طنجة لابد ان نجتمع ونذكر الله جميعا بها قال ثم توجه الشيخ إلى طنجة وفى اليوم الحادى والثلاثين من مقالته احرق اصحاب الريسونى دارى وسلم الله عمرى منهم فتعجبت من تحقيقه لمدة الضمان وكونه لم يزد على ذلك يوما واحدا ومن سلامة نفسى منهم حتى اجتمعنا به وذكرنا الله معه بطنجة كما قال .

ومنها ماحدثنى بعض الأشراف قال مرض والدى مرضاً طويلا حتى سئم أهله وكلوا من مقابلته فلما اشتد بنا الحال ذهبت إلى الشيخ وذكرت له ذلك فقال لى يوم الأربعاء ينتهى الأمر إن شاء الله تعالى قال فخرجت جازما بما قال وذهبت فى الحال وأحضرت الكفن وما يلزم للجنازة وفى يوم الأربعاء توفى والدى قال وكنت أتيته قبل ذلك للزيارة فخرج إلى ولم يدخلنى فسلمت عليه وانصرفت فلما وليت نادانى فقال أخبرونى انك أنت المباشر لوالدك والقائم بشئونه فقلت نعم قال اذهب فسيعطيك الله الدنيا والآخرة قال وكنت وقتئذ لا أملك الامائة وأربعين ريالا فلم تمض على مقالته أربعة أعوام حتى فتح الله فتحا عظيما لم يخطر لى بالبال وامتلكت دورا ومزارع ولا زلت أرى فضل الله تعالى على فى الزيادة .

ومنها ما حدث به بعض أفاضل أهل فاس قال : قدمت لطنجة لصنع بعض الشبابيك بدار السلطان عبد الحفيظ ، وفى يوم الجمعة ذهبت إلى الزاوية

لحضور العمارة مع الشيخ وسماع مذاكرته فلما دخلت وجدته يتكلم على رسائل مولاى العربى بكلام بسيط فقلت فى نفسى ماهكذا يبلغنا عن الشيخ ولا عن معارفه وعلومه قال فبمجرد ما وقع هذا فى نفسى رفع رأسه ونظر الى وشرع يتكلم بكلام عجيب ويخوض فى معارف واذواق فدهشت حتى صرت لا أفهم ما يقول وخجلت منه غاية الخجل وصار العرق ينحدر منى حياء مما خطر ببالى .

ومنها ما حدثنى به بعض الأشراف الصالحين قال كنت أنا وأخى نمشى بأطراف البلد فتذاكرنا أمر الجدول والتصرف به فعزمنا على الذهاب الى الشيخ وطلب الاذن منه فى التصرف به فلما دخلنا عليه فاتحنا ابتداء من غير سؤال بذكر الكلام على علم الجدول واسرار الحرف وانه صعب المنال خطر غير محمود العاقبة وصار يذكر لنا شروطه وأحكامه وما يلزم للتصرف به مما هو فى غاية البعد عن طاقتنا فعلمنا بكشفه الصريح واجابنا عما جئنا له من غير سؤال

ومنها ان امراة كان ياتيها كل ليلة عند ارادة النوم جنى فى صورة كلب فاتى والدها الى الشيخ وذكر له ذلك فقال له مرها ان تقول له انا اشكيك الى صاحب اللحية الحمراء يعنى نفسه لأنه كان يخضب بالحناء ففعلت فلم يرجع اليها بعد ذلك .

ومنها ما ذكره فى نبذة التحقيق قال ذهبت لزيارته يوما فوجدت عنده جماعة من الناس فأخذنى وادخلنى الى محل آخر وقال لى هؤلاء القوم بقاليون جاءوا يشتكون اذاية الريسونى ونفيه عنهم النسب بسبب ما ألقاه اليه بعض فقهاء الوقت ويطلبون الكتابة فى إثبات نسبهم فدهشت بذلك كانه عمل بيد لأنى ما قصدت زيارته الا لأخبره بما حصلت عليه من نسخة من شجرة البقاليين ثم ذكر القصة وان الشيخ امره بالتأليف فى ذلك .

قال ومثل هذا اتفق لى معه كثيرا كنت اعقد النية واذهب اليه بقصد الكلام معه فى مسألة علمية تشكل على أو غرض دنيوى فيكون غالباً هو

لمفاتح لى بما جئت له ومن ذلك مسألة كون الحرام لا يتعلق بذمتين فانى كنت بتطوان وجرت بها مذاكرة فى المسألة مع الفقيه اللواجرى وظهر منه تشديد فيها ولم يحضرنى وقته من النصوص ما يكفى فلما رجعت عزمت على الذهاب الى الشيخ للاستفادة منه فى المسألة فقبل أن أذهب اليه بعث إلى مع بعض أصحابه شرح ابن رجب على الأربعين النواوية وقال اشترهذا الكتاب فانه ينفعك فنظرت فيه وقلبت أوراقه وإذا فى موضع منه علامة من عند الشيخ فنظرت فى الورقة المعلم عليها فوقع بصرى على المسألة نفسها فى شرح الحديث السادس فسلمت الثمن للرسول وأخذت الكتاب فوجدت فيه ما نفعنى كما قال الشيخ .

قال ومثل هذا جوابه لى يوما عن سؤال عزمت على الذهاب اليه ليبسط لى المقال فيه فبينا أنا كذلك إذ به يوجه الى لطائف المنن الكبرى للعارف الشعرانى معلما فيه أيضاً على موضع الكلام فى المسألة عينها وهى كون أهل المراتب يتسلط عليهم من يؤذيهم فى بدايتهم خصوصاً الفقراء المنتسبين .

قال وبالجملة فالذى وقع لى مع هذا السيد الجليل من هذا القبيل كثير جداً بل إنى تعودت منه ذلك حتى صار عندى من قبيل الضروريات ثم أطال فى ذلك بما ينظر فيه .

ومنها ما ذكره صاحب النسمات قال كنت معه بفاس سنة سبع وعشرين وكنا بمنزل بعض الاخوان فجاء الفقير المتجرد الذاكر السيد العباس براده فلما دخل قال له الشيخ رضى الله عنه لم ابطأت يافلان قال كنت اطوف فى فاس بالذكر لأن مولانا ادريس رضى الله عنه قال لى حصن لى بلدتى بذكر الله جهراً حتى لا يدخلها الفرنسيس فتبسم الشيخ وقال له ما فى يدك تحقيق ولا يحصل لك شىء من هذا والفرنسيس لا بد داخل فكانه استنكر ذلك واستعظمه فقال انا ما قلت الا ما قال لى فقال له الشيخ ارجع اليه واسأله عن هذا الأمر فانه رجع عما وعدك به فسكت ولم يرد جواباً فكان الأمر

كما قال فانه بعد سنتين نفذ حكم الله وقضاؤه المبرم ودخل الفرنسيس سنة تسع وعشرين .

ومنها ما حدثني به بعض الصالحين من أصحابه قال ذهبت إلى الشيخ يوما وأذن لى بالدخول فلما أقمت على المحل الذى هو به رأيت ذاته عظيمة جدا قد حازت ركنا كبيراً من الغرفة فدهشت لذلك فلما وقع بصره على تبسم وقال مرحبا فزال عنى ماأصابنى من الدهش ثم رجع جسمه إلى حالته الاعتيادية .

وحدثنى بمثل هذا أيضاً غيره من الفقراء الصادقين

ومنها ما حدثنى به فقيه من بنى سعيد وهو رجل صالح مشهور ببلده قال ذهبت الى تجكان لحضور الموسم فرأيت الشيخ قرب ضريح جده فذهبت أسعى للسلام عليه فلم أجد له أثراً فرجعت وسألت بعض الأشراف من أهلها وقلت أين نزل الشيخ هنا فصار يضحك وقال الشيخ بطنجة لم يقدم إلى هذه البلدة .

ومنها ما حدثنى به بعض أهل العلم قال كنت أواخر أيام الشيخ رضى الله عنه أكثر التردد لزيارته فكان يقول لى كثيراً هل سمعت شيئاً عن حرب أسبانيا فأتعجب لذلك من جهة انه لم يكن بها حرب ومن جهة أنى لست من أهل السياسة وقراءة الجرائد إلى أن فاجأتنا حرب أسبانيا بعد وفاة الشيخ رضى الله عنه بنحو سبعة أشهر .

ومنها ما حدثنى به بعض الخطباء من الفقراء الصالحين قال رأيت ذات ليلة كأنى ذاهب إلى الحج فلما استيقظت قصدت الشيخ للزيارة ولاقص عليه الرؤيا لعلى أسمع منه بشارة ووعداً بذلك فلماجاست معه عدلت عن ذكرها واشتغل خاطرى بامر آخر فقال لى يا فلان ستكون سفرة جمالية إن شاء الله تعالى .

وكراماته رضى الله عنه كثيرة جداً وقد ذكرت فى الأصل أضعاف هذا مع كونه لا نسبة بينه وبين الواقع والحمد لله رب العالمين .